بيكار

عازف الألوان والنغم

منذ أيام قلائل مرت بنا الذكرى الأولى للفنان الكبير "حسين بيكار" فى هدوء شديد وهو الذى ملأ الدنيا فناً وإبداعاً وجمالاً، وبهجة، بدأب وإصرار على العطاء، رحل كنسمة صيف عن عمر يناهز التاسعة والثمانين، فقد كان فناناً رائعاً، صاحب بصيرة نافذة، وذوق رفيع، أحب الموسيقى منذ نعومة أظافره، وعزف على آلة العود فى حفلات أصدقائه ومحبيه، وتفوق فيه كأحسن العازفين.

كتب بيكار أيضاً رباعيات وخماسيات زجلية تتقطر حكمة وبلاغة، ورسمها على صفحات جريدة "الأخبار" التى عمل بها بعد أن ترك التدريس فى الجامعة كأستاذ للفنون الجميلة، وقدم عشرات الفنانين التشكيليين من خلال باب "ألوان وظلال" برؤية نقدية، وشارك فى تأسيس مجلة "سندباد" للأطفال، التى كانت ومازالت نقلة حقيقية فى عالم صحافة ورسوم الأطفال، ظل معطاء طوال حياته، ومعلماً للكثير من الأجيال.

obeikandi.com

وردة وفراشة

ولد حسين أمين يوسف بيكار، يوم ٢ يناير ١٩١٣، فى مدينة الإسكندرية فى حى الأنفوشي، حيث الصيادين ومراكب الصيد الشراعية وشباكهم المليئة بالأسماك الفضية التى تتلألأ تحت أشعة الشمس، فتتشبع بنسائم البحر الفواحة التى غذت وجدانه، منذ طفولته المبكرة، وكما يقول بيكار: فى حواراته الصحافية، طبقاً لكتاب "حسين بيكار الفنان الشامل" للدكتور صبحى الشاروني، الصادر عن دار الشروق، يقول: "التفت فى سن الرابعة إلى رسوم كتاب الأطفال من خلال الكتاب المقرر آنذاك "القراءة الرشيدة"، ويحكى بيكار عن اكتشافه للفن فى أوراقه، فيقول: "كنت طفلاً حين رأيت والدتى رحمها الله دؤوبة على أعمال الأبرة، وكانت ترسم بالقلم الرصاص وردة أو فراشة، وكنت عندما أراها تفعل ذلك أشعر بالدهشة، فقد كنت أرى الوردة فى الحديقة والفراشة واقفة على زهرة، وأطالع النباتات فى أصص الزرع، لكن المدهش أن هذه الأشياء كانت تتحقق على مفرش التطريز بواسطة أصابع والدتي، وكنت أنظر إلى ما يحدث باعتباره عملا سحريا، لا يقدر عليه غير إنسان ذى قدرات خاصة وخارقة".

وفى تلك الفترة المبكرة من حياته ظهرت ميوله الموسيقية، فكانت الموهبة الأولى والتى ظهرت عنده قبل ولعه بالرسم،

أصبح هو الطفل المعجزة لأسرته، بعد ما أصبح فى سن الثامنة مدرساً للموسيقى لبنات أسر المجتمع الارستقراطى فى العشرينيات، وأصبح وهو فى هذه السن الصغيرة خبيراً بآلة العود، ولكنه قرر بعد عدة سنوات أن يتحول عشقه الرئيسى من العزف على أوتار العود إلى العزف بالألوان.

وبعد حصوله على الشهادة الابتدائية، هاجر مع والدته من مسقط رأسه "الإسكندرية" ليلتحق بمدرسة الفنون الجميلة، حين ناهز الخامسة عشرة من عمره، ليكون من أوائل الطلبة المصريين الذين التحقوا بها، وكان من زملاء بيكار فى بداياته الأولى بهذه المدرسة فنانون كبار مثل: رمسيس يونان، ونحميا سعيد وعلى الديب، ثم لحقه صلاح طاهر، وعبد السلام الشريف.

ودرس بيكار على يدى الأساتذة الأجانب، وعندما عاد الرعيل الأول من الفنانين التشكيليين من بعثاتهم فى أوروبا، أتيح له أن يتلقى تعليمه على يد اثنين من أهم الرواد الذين تأثر بهم فى شبابه الباكر: يوسف كامل، وأحمد صبرى الذى كان يهوى الموسيقى مثل بيكار، وقد رسم صبرى بورتريها شهيراً لـ"بيكار" وهو يعزف على العود.

حكايته مع النيل

بعد تخرجه، عمل على تأسيس متحف الشمع وإنجاز بعض الأعمال فى ديكور المعرض الزراعي، إلا أن هذه الأعمال الموسمية لم توفر له الحد الأدنى للمعيشة، لذلك قبل العمل بالتدريس، وعين أولا: فى مدرسة دمنهور الابتدائية، ثم انتقل إلى القاهرة فى مدرسة المنيرة الابتدائية، ورقى إلى مدرس ثانوي، فانتقل إلى مدرسة قنا الثانوية، حيث أمضى ثلاث سنوات، يقول بيكار عن هذه الفترة: أخذنى النهر، فلاحات النهر، وحضارة النهر، النيل هو الذى يسكنني، هناك فى قنا بدأت أتعرف على هذا البلد، وجدت فى الجو شيئا غريباً، ف"مصر" ليست العاصمة، ولا حتى المدن والقرى الشمالية، مصر هى الصعيد "الجواني" هناك بقايا مصر الفرعونية، كيف أشم رائحة "الوقيد" والعيش، وكأنها تأتى من ثلاثة ألاف عام السابقة على الميلاد، كنت أشعر أن الوجوه المرسومة على جدران المعابد تتحرك معى وتكلمنى وتأكل معى فى الإناء الفخاري، ، وقد تتلمذ على يديه فى هذه المدرسة الفنان الكبير صلاح عبد الكريم.

وهكذا تربت عبقرية بيكار بهدوء، وبعيداً عن ضجيج القاهرة، ومن قنا انتقل إلى مكان جديد وبيئة مختلفة، إلى المغرب، ربما لم يكن بيكار يخطط أبدا أو حتى يفكر للحظة فى أنه سيترك مصر ليعمل فى أقصى غرب القارة

الإفريقيـة، ولكـن لأن المصادفـة تتحكـم أحيانـاً فـى مصائـر البشـر، فقـد سـافر علـى طلـب أرسـله صديقـاً لـه باسمـه بعـد أن قـرأ إعلانـاً منشـوراً فـى الصحـف، وفوجـئ بيـكار بأنـه مطلـوب لسفر، وهكـذا انتقـل مـن قنـا إلى المغـرب سـنة ١٩٣٩، ليعمـل بمدينـة تطـوان لمـدة ثـلاث سـنوات، ومـن هـذه المدينـة الضاربـة بجذورهـا فـى عمـق التاريـخ، ولـدت لمسـات جديـدة فـى لوحـات فناننـا الشـاب، فأنتقل مـن الواقعيـة إلى السـريالية.

وفـى تطـوان أيضـاً بـدأت علاقـة بيـكار برسـوم الأطفـال بعـد أن رسـم كتابـاً لتعليـم الأسـبانية للأطفـال برسـوم بسـيطة تسـهل عمليـة التعليـم لصغـار السـن، وبعـد عودتـه ل"مصـر" كان أول فنـان مصـرى يرسـم للأطفـال فـى مجلـة "الأسـبوع" التـى كان يشـرف عليهـا جـلال الديـن الحمامصـي، ثـم شـارك كامـل كيلانـى فـى إصـدار بعـض كتبـه ومؤلفاتـه، وفـى سـنة ١٩٤٨ ظهـرت رسـوم بيـكار علـى العـدد الرابـع مـن سلسـلة "أولادنـا" التـى كانـت تصدرهـا دار المعـارف، ومـن بعدهـا تـولى مسـئولية أول ركـن للأطفـال بـدار أخبـار اليـوم، لتبـدأ منـذ هـذه اللحظـة مواهـب هـذا الفنـان فـى الظهـور.

أصعب أيام حياتي

وبعـد أن تـرك بيـكار التدريـس فـى الجامعـة بعـد أن وصـل لرئاسـة القسـم الحـر خلفـاً ل"أحمـد صبري"، وذلـك بنـاء علـى طلـب "علـى أمـين" ليتفـرغ للعمـل ب"أخبـار اليـوم" رسـاماً

صحفياً، يقول بيكار: أمهلني على أمين أسبوعاً واحداً للتفكير، وكانت أصعب أيام في حياتي، لأنه لم يكن من السهل أن أترك وأهجر شريك عمر أحببته وعاصرته ثلاثين عاماً من عمرى دون سبب، ولكن على أمين بعد ثلاثة أيام فقط من حديثه الأولى طلبني وقدم لى ورقة بيضاء مذيلة بإمضائه، وقال لي: أكتب شروطك، وبهذا سلبني إرادتي، وفي صباح اليوم التالى كانت استقالتى من التدريس فوق مكتب العميد.

وأتاحت له "أخبار اليوم" أن يطوف العالم في رحلات فنية بوصفه سندباداً صحفياً، فسافر إلى الحبشة وتونس والجزائر والمغرب ولبنان وأسبانيا واليابان، وعبرت رسومه الصحفية عن أسلوب جديد تماماً وتيار مختلف للرسم الصحفى، وكتب مئات المقالات فى "أخبار اليوم" كناقد تشكيلي، فضلا عن مئات الرسوم الصحفية التى ظل القارئ يصافحها صباح الجمعة من كل أسبوع فى صحيفة "الأخبار" مصحوبة بأبيات الزجل البسيطة التى يقول فى أحدها:

"نفسى فى خمسة قراريط فى الفضا/ أزرعهم نجوم وبدور/ وأسبح معاهم ف السما/ وأفضل أدور أدور/ وأبلبط فى موج النور/ زى بلطية سمك فى البحور/ مش أحسن ما أملك فى الصحرا/ ألف فدان بور!".

وكان بيكار رساماً للبورتريه وفارساً فى هذا المجال لا يشق له غبار وتجلت عبقريته وريادته وخصوصيته فى

إضافاته الباهرة فى مجال رسوم الأطفال، وشارك فى تأسيس مجلة "سندباد" للأطفال فقد تولى إخراجها الفنى ورسومها، والتى خرجت العديد من الأجيال الجديدة.

وأخيرا لابد من الإشارة إلى مجموعة لوحاته التى أعدها لفيلم "العجيبة الثامنة" الذى يحكى قصة معبد رمسيس الثانى فى أبى سمبل وإنقاذه من الغرق بعد بناء السد العالي.

بيكار الذى ولد عام ١٩١٣ فى الإسكندرية مضى رقيقاً خفيفاً لا يحمل ضغينة لأحد، محباً كعادته للناس، ومترفعاً عن الصغائر، كان فناناً كبيراً بحق، وامتداداً لأسلافه من الفنانين القدامى الذين علموا البشرية.

رحم الله الفنان الكبير بيكار الذى أسلم الروح فى نوفمبر ٢٠٠٣، وكانت وصيته أن تتم مراسم الدفن فى أضيق الحدود، فقد كان حريصاً على أن يمضى إلى مقره الأخير فى هدوء وبساطة، وهو القائل: "نفسى أمد يدى للسما/ يمكن أطول قوس قزح/ وأعصر فى قلبى ألوانه وأملا/ من كل لون قدح/ وأغمس رموش فى أنغامه/ وفى كل أطياف المرح.

★ نشر فى جريدة القاهرة فى يناير ٢٠٠٤